سبع قواعد نافعة في الحفظ

للشيخ صالح بن عبدالله بن حمد العصيمي

القاعدة الأولى:

حسن اختيار المحفوظ بأن يكون من المتون المعتمدة عند أهل العلم وإلى ذلك أشار الزبيدي بقوله في ألفية السند:

بحفظ متنٍ جامعٍ للراجح تأخذه على مفيدٍ ناصحِ

فالمتن الجامع الراجح هو المعتمد فمن الغلط حفظ المتن الذي لا يعتمد مثل ألفية الآثاري ويترك المعتمد وهي ألفية ابن مالك

والمتن المعتمد ليس الذي تعرفه في بلدك وهل بلدك دار العلم فقط؟، ذكر الذهبي رحمه الله: أن العلم بحرٌ لا ساحل له وهو مبثوث في الأمة موجود لمن التمسه

القاعدة الثانية:

البداءة بالمختصرات، لأن الإنسان إذا حفظ المختصرات صارت له مُكنةٌ في العلوم وفي المختصرات أيضا يكون حفظ مجمل العلم واعتمد أبوابه، أما في المطولات فقد لا يتسع وقته في حفظ المطولات ولا قوته.

أن تجمع نفسك على المتون المختصرة في كل فن، فتبدأ بالصغار قبل الكبار ثم تترقى بعد ذلك إلى الكبار.

القاعدة الثالثة:

أن تصحح المحفوظ تصحيحاً بالغاً باعتماد نسخٍ صحيحة أو عرضه على شيخ متقن، ولقد قلتُ في أبياتٍ لي ذكرتُ فيها هذا المعنى:

مقاصِدُ للمبتَدِي تُبيَّنُ *** عند ابتغاء الشرحِ وهي هيِّنُ

أن تُصلِحَ المتنَ ومعناه الذي *** حواهُ بقولِ الأحوذي.

فالمقصود أنّ أول مرتبة في أخذ العلم هي تصحيح المتون وإصلاحها، لماذا؟ حتى لا تحفظ خطأ.

القاعدة الرابعة:

أن تقسِّم المحفوظ إلى مقادير متناسبة، فلابد أن تكون متناسبة من جهة القوة التي عندك، أما الذي يحفظ دون تناسب هذا غلط .

وكان من عادة أهل شنقيط قديما حتى تلاشى الأمر لضعف العلم في سائر بلاد الإسلام ما يسمّى بالقَفَاف، فإنهم كانوا كل قدر يكتبون بعده قِف، يعني لا تزيد، وقد جعلوا مختصَر قليل ثلاثمائة وستين قفا من الأقفاف. يعني ثلاثمائة وستين قف، قد تحفظ القِف الواحد في يوم، قد تحفظه في يومين، المقصود أنك تقسّمه إلى شيء متناسِب.

القاعدة الخامسة:

أن تحفظ بالإعادة مرارًا وتكرارًا كثيرًا. يعني لا تأتي مرة واحدة .

قال ابن أُبَّ واسمه محمَّدُ *** اللهَ في كلِّ الأمور أحمَدُ.

حفظنا البيت هذا ننتقَل للذي بعده، لا، هذا غلط .

قال أبو المفاخِر النيسابوري: "إنّ الشيء إذا لم يُعَدْ سبعين مرة لا يَقِرّ."

ولذلك منفعَة الإعادة في الحفظ والفهم لا يعادلها شيء، إعادة الشيء حفظا وفهما مرة ومرتين وثلاث وأربع وخمس وست وسبع، بهذا يُحصَّل العلم، عدْها مرة واثنتين وثلاث وأربع وخمس وست وسبع، سواء حفظًا أو فهمًا .

وقد ذُكِر أن ابن هشام أعاد الألفية قراءة ألف مرة. ذَكَره الجبرتي في تاريخه.

وكثير من الأشياخ الذين أدركناهم فيما سبق كانوا يعيدون الكتاب أكثر من عدّة مرات، مثلا في القُطْر النجدي القطر الحجازي كانت هناك متون معتمَدة تُعاد عدَّة مرات كثيرة لا يتجاوزونها، فكانوا علماء؛ لأنك إذا بنَيتَ الأساس وكان لك فهم في العلم لن تَحتج إلى سواه، يكون ما في المطوّلات هذا فضل وزيادة، إن طالعتَه زاد علمك، وإن لم تطالعه فأنت على علم ثابت.

أما الناس الآن عندهم شَغَف فقط اقرأ أيّ كتاب جديد أو درس جديد يحضرونه ويسمعونه وإذا دُعُوا إلى ما سبق قالوا: يا أخي هذا مكرَّر.

قالوا المكرَّرُ فيهِ *** قُلْتُ المُكرَّر أَحلى.

وصدق، قال المكرَّر أحلى. المكرّر والمعاد مرة ومرتين وثلاث أحلى.

وصدِّقوني ستعلمون صدق هذا الأمر في أنفسكم بعد سنين .

وكثير من الناس ساروا في العلم السنة والسنتين والثلاث والأربع والخمس والست والسبع والثمان والتسع والعشر ولم يفلحوا، لماذا؟ لأنهم ظنوا أن العلم أن تحضر برهة يسيرة في بعض الكتب ثم تقرأ في مكتبتك، هذا ليس العلم، العلم طول الصحبة للأستاذ المعلم المرشِد ولو أعاد العلوم.

روى أبو نعيم الأصبهاني بسند صحيح عن مالك أنه قال: "كان الرجل يختلف إلى الرجل ثلاثين سنة يتعلم منه العلم". فلابد أن تعيد العلم مرة ومرتين وثلاث إلى مرات كثيرة حتى تفهمه وتحفظه.

القاعدة السادسة:

أن تعرضه على غيرك، وأكمله شيخٌ عارِف، فإن لم يمكِن فقرينٌ مساعد. لأنك إذا أخرجتَ العلم من جوفك رسخ فيك أكثر؛ لأنه يعود عليك مرة ثانية بالسماع، وربما تذهل عن شيء فيصحِّح لك من تَعرِض عليه. فلابد أن تعرِض محفوظك.

القاعدة السابعة:

أن تجعل في وقتك ميعادا مضروبًا لتكرير محفوظاتك. وأكمل شيء جُرِّب فعُرِفتْ منفعته: اختيار يوم الجمعة لتكرير المحفوظ.

والقاعدة التي عُمِل بها هكذا: أن تحفظ يوم السبت، فإذا جئت الأحد تحفظ جديدا وتراجع يوم السبت، فإذا جئت يوم الاثنين تحفظ جديدا وتراجع اليومين السابقَين، حتى تنتهي في الحفظ إلى يوم الخميس، فإذا جئت يوم الخميس تحفظ جديدا وتراجع الأيام الخمسة المتقدمة، فإذا جاء يوم الجمعة توقِّف الحفظ، وإنما تجعل هذا اليوم لمراجعة محفوظك في هذا الأسبوع، فإذا جاء الأسبوع الثاني وجئت السبت تحفظ جديدا وتراجع الأسبوع الماضي وتُسقِط السبت، وتُسقِط محفوظك الذي في السبت، ثم إذا جاء الأحد تراجع محفوظك السابق وتُسقِط السبت والأحد الماضي ،حتى إذا انتهيت إلى آخر الشهر توقِف الحفظ، فتكرِّر محفوظك في هذا الشهر، قد يكون متن، متن ونصف، متنين، الله أعلم بقدر ما تحفظ، لكن تجعله محفوظك في هذا الشهر للتكرير، وتبقى على هذه الحال، ومتى وُجِدَ عارِض داعٍ كالاختبارات تتوقف، لكن متى وجدتَ الإجازة الصيفية فاجعلها موسمًا قبل أن تبدأ بالحفظ أو حضور الدروس موسمًا لإعادة محفوظك في السنة كلها، أعِد محفوظك في السنة كلها ولو بقيتَ شهرا كاملا تعيد الذي في السنة كلها، ثم تبدأ تزيد فالربح لك.

ثم إذا قضيتَ من هذه السنة رجعتَ إلى قاعدتك التي كانت في السنة الماضية، فإذا جئت إلى السنة التي بعدها إجازة الصيف تراجع محفوظك في السنتين السابقتَين، ثم بعد فترة من الزمن لاستقرار المتون في قلبك، تجعل عندك محفوظات من المطولات تجعلها كالوِرد، تقرأ فيها بالنظر؛ لأنك الآن حفظتَ مراتٍ كثيرة فتتخيَّر المطولات وتجعلها بالنظر، فإنها بهذه الطريقة تستقر معك حتى تلقى الله –عز وجل–. يا إخوان الحفظ لا يموت إلا إذا مات الإنسان.

ابن هشام النحْوي كان شافعيًا فانتقل إلى مذهب الحنابلة قبل موته بخمس سنوات، وكان هرِمًا، فحفظ الخِرَقي في ستة أشهر، مختصر الخِرقي من مختصرات الحنابلة، حفظ، انظروا وَعْيَه، ما قال علم بدون حفظ، قال: لا، لازم أحفظ في فقه الحنابلة متن، فحفظ الخرقي في ستة أشهر.

وابن مالك في يوم موته حفظ ستة شواهد لم يكن يحفظها من قبل .

فالإنسان لا ينبغي له أن يترك الحفظ .

هذه هي أهم القواعد التي ينبغي أن يعمل بها الإنسان وإن كانت القواعد قد ألقيتُ فيها عدة محاضرات، مرة تجاوزتْ مائة قاعدة، لكن هذه هي أهم القواعد التي ينبغي أن تُعمِلها وأن تُصابِر نفسك على العلم. العلم يحتاج إلى صبر ومصابرة .

وأبو يعلى الموصلي –رحمه الله– الحافظي يقول :

وقلّ مَن جَدَّ في أَمْرٍ تَطَلَّبَه *** واصطصحَبَ الصبر إلا فاز بالظَّفَرِ.

فالذي يصبر ويكابِد مرة ومرتين وثلاث يحفظ.

واعلموا يا إخوان أن الحفظ يبدأ قليلا ويعود كثيرًا. قد لا يستطيع الإنسان يحفظ، الذي يبدأ بالحفظ قد لا يستطيع لكن مع المُرْنَة سيحفظ.

وذكر أبو هلال العسكري كلامًا له أنه كان يعاني البيت الواحد الساعات الطوال ما يحفظه، ولم يزل بنفسه، حتى حفظ في سَحَرٍ واحد قصيدة رؤبة ابن العجاج "قاتم الاعماق خاوي المخترقْن"، حفظها وهي ثلاثمائة بيت في سَحَرٍ واحد، لماذا؟ لأنه واصَل على نفسه، واصَل وجاهَد، حتى صار حافِظًا.

كما أن القوة البدنية تقوى بالتدريب والتمرين، كذلك القوة القلبية تقوى بالتمرين، لكن لابد من شهوة القلب وصدقه.

البخاري سُئل: ما دواء الحفظ؟ قال: "لا أجدُ مثل نهمة الرجل، وإدمان النظر في الكتب."

وسُئل ابن المبارك: قال: كيف تحفظ؟ قال: "إنما هو إذا اشتهيتُ حفظتُ"، يعني إذا صار عندي ميل وقبول فإنني أحفظ.